

الحكاية الشعبية وأثرها على الطفل الجزائري في المراحل التعليمية المتوسطة

فتيحة خلوفي

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة سيدي بلعباس

الملخص:

الحكايات والأحاجي من الآداب الشعبية التي تنتشر في كل المجتمعات على اختلافها من البدائية إلى المتحضرة، فهي توجد أينما وجدت طفولة وأمومة آدمية ، وكل من تعامل مع الأطفال يعرف مكانة الحكاية في نفوسهم، ويعرف كم يسعدهم حينما يستمعون إلى الحكاية تروى أو تقرأ ، ولهذا تحتل في أدب الأطفال مكانة متميزة لا ترقى إليها ألوان الأدب الأخرى ، فهي تشكل مصدرا هاما من مصادر أدب الأطفال ، ومجالا خصبا وواسعا أصبح يتجه إليه عدد كبير من الأدباء والكتاب في العالم الغربي والعربي ليستمدوا منه موضوعات متنوعة زاخرة بمضامين وأفكار مختلفة، يقدمونها للطفل حيث يجد المتعة والتسلية والتربية.

الكلمات المفتاحية: الحكاية ;الأحاجي ; الأدب الشعبي ; التعليم ;أدب الطفل

تهتم معظم دول العالم بجمع حكاياتها الشعبية، وتقديمها في شكل سهل ميسر للأطفال لتروى عليهم في رياض الأطفال ، وتطرح لهم في المكتبات الثقافية ، وتُلقى على مسامعهم في الإذاعة المسموعة ، وتُشاهد في الإذاعة المرئية. كما كثفت من الدراسات والبحوث وعقد الندوات العلمية حول موضوعات الحكايات الشعبية ودورها في تثقيف الأطفال وغيرها من نواحي الاهتمام الأخرى، إيماناً منها بأنّ الطفل يجب أن يكون على وعي وبصيرة بتراث أمته الشعبي ، حتى يكون له زادا في طريقه ومسيرته لصعود سلم الحضارة التي يهفو أي مجتمع إلى الوصول إليها ، وأخذ مكانه المناسب مع المجتمعات الأخرى.

وفي الوقت الذي تتلاحق فيه البحوث والدراسات على الأطفال وآدابهم وتكتشف الجهود في الحفاظ على الحكايات الشعبية التراثية، وإمداد الطفل بها في البلدان المتقدمة، فإنّها لازالت مجرد تخاريف عجائز، ترويه الجدات للأطفال في وقت الفراغ والتسلية والترفيه في البلدان العربية عامّة والجزائرية خاصّة .

وإلى الآن وبعد مضي خمسة عقود على الاستقلال لازل الطفل الجزائري يقتني من المكتبة الجزائرية قصص التراث الغربي التي تملأ رفوفها كحكايات : سندريلا ، والأميرة النائمة، والجميلة والوحش... في حين يحرم من تراثه الجزائري الغنيّ بالحكايات الشعبية ، التي لا تقل أهمية عن الحكايات الغربية مثل: بقرة اليتامى ، لونجة ، عشبة خضار ، الملقي بالدينار... وغيرها من الحكايات الشعبية القيمة التي تعيش في ذاكرة العجائز والجدات ، والتي أصبحت الحاجة إليها ضعيفة ، فزمن العولمة يزاحمها بتطور وسائل الاتصال وضعف الذاكرة يقتلها بمرور الزمن وكبر السن ، وهو أمر يجعل

المخاوف تزداد من ضياع هذه الحكايات وتلاشيها ، فكلما ماتت جدة احترقت مكتبة ، وكلما احترقت مكتبة ضاع تراث.

ولعل ما يثير الاهتمام حقا هو المدى الذي يتفاعل فيه الأطفال مع الحكايات الشعبية، فقلما نجد أطفالا أو مجموعة أطفال لا يتضامنون مع الحكايات ، كما أنّ أجيالا كثيرة منهم تعود وتكرر العودة إلى هذه الحكايات لتجدد كيانها ، ذلك أنهم يجدون فيها متنفسا لقضاياهم، وحلولا لمشاكلهم، وإجابات على تساؤلاتهم، إضافة إلى أنّها منبع للمتعة والتسلية والإثارة والتشويق . إنهم يكتشفون فيها مصدر الاكتفاء الذاتي الذي يساعدهم على إشباع حاجاتهم النفسية، وبناء هويّتهم الشخصية.

وعلى الرغم مما يحيط بالأطفال من وميض براق لشبكة الأنترنت و ألعاب الفيديو والبرامج التلفزيونية، مما يخطف الأنظار ويسلب العقول، إلا أنهم لا يرفضون هذه الحكايات إذا ما رويت على مسامعهم ولا ينكرون استمتاعهم بها ورغبتهم في الإطلاع عليها إذا ما أتيحت لهم الفرصة في ذلك، على الرغم من اختلاف مستوياتهم وتفاوت أعمارهم.

-الطفل و الحكاية الشعبية :

إنّ الاستمتاع بالقصة أو الحكاية يبدأ مع الطفل منذ الوقت الذي يستطيع فيه فهم ما يحيط به من حوادث، وما يذكر له من أخبار، وذلك في أواخر السنة الثالثة من عمره فهو على الرغم من صغر سنه ينصت للحكاية التي تناسبه، ويشغف بسماعها ويطلب المزيد منها، ويستمر معه هذا الشغف إلى أن يكبر.

والحكاية تأتي في المقام الأول من أدب الأطفال، فكلّهم يميلون إليها ويستمتعون بها ويجذبهم ما فيها من أفكار وأخيلة وحوادث، فإذا رافق الحكاية سرّد جميل وأسلوب شيقّ تصحبه تعبيرات غير لفظية ونبرات صوت تتناغم مع الأحداث ، كانت الحكاية قطعة من الفن المحبب جداً لدى الأطفال.

وفي الحكاية فكرة ومغزى وخيال وأسلوب ولغة وفن، ولكل هذه العناصر أثر في تكوين الطفل وبناء شخصيته، ولهذا نشأت ضرورة الاستفادة من الحكاية في المدرسة، وانتقاء الجيد منها والإمام بكيفية عرض الحكاية على الطفل، فالحكاية أو القصة في المدرسة الابتدائية وفي المرحلة المتوسطة من عمر الطفل (الإعدادية) ضرورة تربوية لا غنى عنها.

وتعدّ « مرحلة الطفولة أهم المراحل في بناء شخصية الفرد وتشكيل وعيه وتوجيه سلوكه، فالطفل في هذه المرحلة يكون قابلاً للتأثر والتوجيه والتشكيل واكتساب المهارات الاجتماعية المختلفة، ولذلك تعدّ دراسة الطفولة والاهتمام بها جزء من الاهتمام بالحاضر والمستقبل، لأنّ الأطفال يشكلون الأجيال القادمة، وتنمية الطفولة جسداً وفكراً مكون أساسى من مكونات التنمية الاجتماعية، ورعاية حقوق الطفولة أولوية مقدمة في جهود التنمية، إضافة إلى أنّها التزام ديني ووطني وقومي وإنساني»¹.

وللحكاية أهمية كبيرة في بناء الشخصية وتنشئة الأطفال وتربيتهم، ذلك لأنهم بحاجة إلى ما يساعدهم على تحقيق النمو السليم المتكامل في مختلف النواحي، كما أنّهم بحاجة إلى بيئة تهيئ لهم جوّاً اجتماعياً وثقافياً ومواقف مناسبة للخبرة، والحكاية تستطيع أن تهيئ البيئة المطلوبة، وتوجه سلوك الطفل بشكل غير مباشر، فتساهم في تربيته وتطوير

مداركه في مختلف مراحل العمر، ويستخدمها المربون والاختصاصيون النفسانيون بهدف تصحيح سلوك الطفل، وتفعيل نشاطه، وتأسيس مناخ نفسي طيب لديه.

وتنوع الحكايات الشعبية « بين الأسطورية والخرافية، أو الحكايات الصرفة، يُعطي للأدباء فرصة لتقديم منظومة القيم المرجوة بشكل رامز²، تتسلل لنفوس الناشئين إلى جانب تحقيق الأهداف التربوية وفي مقدمتها الوظيفة الترويحية من إيقاع وتسلية مع المقاصد التربوية التعليمية.

- تفاعل طفل المرحلة الإعدادية مع الحكايات الشعبية (دراسة تطبيقية) :

تمثل الدراسة التطبيقية التالية في الوقوف عند مجموعة من الحكايات الشعبية الجزائرية المعروضة على الأطفال في المتوسطات التعليمية للكشف عن مدى تفاعلهم معها، وعن مدى تقبلهم لمضامينها وفهمهم لنصوصها، وإقبالهم عليها مقروءة أو مروية في زمن كثرت فيه وسائل الترفيه وإزجاء الوقت، وطرق التعليم والتثقيف.

وقد اعتمدنا في هاته الدراسة على المنهج الإحصائي، مجتهدين في ذلك كل الاجتهاد كي نقدم دراسة علمية دقيقة حول ما نالته الحكايات الشعبية من حظ وإقبال عند هذه الفئة من الأطفال، بحيث قمنا بعرضها عليهم على مرحلتين: المرحلة الأولى ويقوم فيها الأطفال بقراءة النصوص الحكائية مكتوبة، أما المرحلة الثانية فيستمعون إليها مروية شفويا، وقد استعنا في ذلك ببعض الأساتذة داخل المؤسسات التربوية التي قصدناها.

بعد ذلك كان لزاما علينا توزيع استبيانات على الأطفال ملئها مع العلم أننا استهدفنا في ذلك أطفال المرحلة الإعدادية (المتوسطة)، الذين تتراوح أعمارهم ما بين (12-15 سنة)، والذين بلغ عددهم 320 تلميذا، مائة وستون (160) منهم بنات، ومائة وستون (160) بنون موزعون بين أربع متوسطات، في كل متوسطة تربوية ثمانون (80) تلميذا، وفي كل مستوى تربوي عشرون تلميذا، عشرة منهم بنون والعشر الأخرى بنات، فوصلنا إلى النتائج التالية:

الحكاية الشعبية وطفل المرحلة الإعدادية:

بما أن الحكايات والقصص ترضي مختلف المشاعر والأمزجة والمدارك باعتبارها عملية مسرحية للحياة والقيم، فإن الميل إلى قراءتها أو الاستماع إليها لازال متوفرا وبشكل ملفت للانتباه لدى أطفال المرحلة الإعدادية، ووقفة بسيطة أمام هذا الجدول تبين أن الأطفال إلى غاية سن الخامس عشر سنة من عمرهم مستعدون إلى الاستماع إلى الحكايات الشعبية وقراءتها بنسبة تجاوزت 94%.

نعم	بنسبة	لا	بنسبة	نوعا ما	بنسبة
301	94.06%	03	0.93%	16	05%

هل تحب الاستماع إلى القصص والحكايات

الحكايات الشعبية في العادة، تكون أنسب للعرض على أطفال مرحلة الطفولة المتوسطة، أي الذين تتراوح أعمارهم ما بين (06-09 سنوات). وهي مرحلة يتميز فيها الطفل بسرعة النمو في خياله وتطلعه إلى دنيا أخرى غير دنياه، "لذا يتبلور ولعه بالقصص الخيالية التي تخرج في مضامينها عن محيطه وعالمه، بل نجد الطفل ينجذب للإنصات إلى القصص الخرافية أيضا بما في ذلك قصص الجان والعفاريت".³

لكن هذا لا ينفي استمرار ولع بقية الأطفال بمثل هذا النوع من الحكايات، إذ «يستمر الوله بالاستماع للحكايات الخرافية مع الأطفال إلى أن يصبحوا في طور الشباب»⁴، وقد يعود السبب في ذلك إلى ما يراه الدكتور "عبد الحميد بورايو" من وجود تماثل بين «نمو عالم الإنسان الداخلي، وتشكل عالم الحكاية الشعبية، وهي صفة تجعل منه مادة مغرية للفرد الشعبي، الذي يجد فيه كشفا للعمليات الداخلية التي تجري في ذاته، وخاصة في مرحلة الطفولة عندما تنشط عملية التغيير، وتلح الرغبة في تحقيق الذات، ومعرفة أسرارها وهو ما يفسر إقبال الأطفال والناشئة على هذا النمط من أشكال التعبير الشعبي»⁵، وعلى الرغم من أن أطفال المرحلة الإعدادية يدركون بأنها مجرد حكايات خيالية لا أساس لها من الحقيقة والواقع، إلا أن الرغبة لديهم في الاستماع إليها لا تفتقر ولا تقل، ذلك أن هذا النوع من القصص الخيالي الشيق يهيئ لهم قدرا أكبر من المتعة والتسلية والفائدة أيضا، لكن يبدو بأنهم لا يفضلونها كلها، إذ يستهون أنواعا محددة ذات مضامين وأهداف تربوية وتعليمية قريبة من واقعهم، مجسدة لمفاهيم الحياة لديهم، وهو ما أسفر عنه عرض الحكايات عليهم إذ أحبوا البعض منها حبا شديدا، ونفروا من الأخرى نفورا مثيرا، والجدول التالي يوضح ذلك:

المستوى العمرى عنوان الحكاية الشعبية	سنة 12 (الأولى متوسط)		سنة 13 (الثانية متوسط)				14 سنة (الثالثة متوسط)		15 سنة (الرابعة متوسط)		مجموع التلاميذ		النسبة المتوية
	عدد التلاميذ	النسبة المتوية	عدد التلاميذ	النسبة المتوية	عدد التلاميذ	النسبة المتوية	عدد التلاميذ	النسبة المتوية	عدد التلاميذ	النسبة المتوية			
مفسرة الألغاز	06	%7,50	07	%8,75	10	%12,15	11	%13,75	34	%10,62			
عشبة خضار	08	%10	07	%8,75	05	6,25%	09	%11,25	29	%9,06			
مخدوق ومحروش	03	%3,75	01	%1,25	01	1,25%	02	%2	07	%2,18			
برد العجوزة	04	5%	02	%2,50	02	2,50%	00	%00	08	%2,50			
وحش الجبال وحوار العين	02	2,5%	05	%6,25	03	3,75%	07	8,75%	17	%5,31			
سلاك الحرير من السدارية	00	%0	00	%0	02	2,50%	03	3,75%	05	%1,56			
الأخوان علي وعلي	40	%50	39	%48,75	32	40%	27	33,75%	138	%43,12			
بقرة اليتامى	17	21,25%	19	23,75%	25	31,25%	21	%26,25	82	%25,62			

إن قراءة سريعة للجدول المدون أعلاه تبين أن الأطفال يجمعون على أن حكاية " الأخوين علي وعلي " هي الأفضل في المجموعة المعروضة عليهم خاصة منهم الذين يبلغون من العمر اثنتا عشرة سنة، إذ وصلت نسبة الإعجاب بها

50%، ويعود ذلك إلى أنهم شديداً الإعجاب بالأبطال والمغامرين والمستكشفين يحاولون في كثير من الأحيان تقليدهم في أعمالهم ومغامراتهم. يقول في ذلك هادي نعمان الهيتي: « والأطفال في نهاية هذه المرحلة (مرحلة الطفولة المتأخرة) يصلون إلى ما يسمى "عبادة البطولة" التي تبلغ قممها عند وصول الطفل سن الثانية عشرة، والقصص التي يميل إليها هي قصص المغامرات والشجاعة والمخاطرة والإقدام... سواء أكانت واقعية أم خيالية»⁶. أما بقية الأطفال، وهم الذين تتراوح أعمارهم ما بين (13-15 سنة) فقد برّروا سبب إعجابهم بهذه الحكاية كالآتي: هي حكاية ممتعة ومشوقة رغم أنّها طويلة، ومفهومة رغم أنّها مركبة. لغتها بسيطة لا تعقيد فيها، وأحداثها متجددة لا غموض فيها، كما أنّها (الأحداث) مرتبة حسب وقوعها في الزمن مما يسهل تتبعها وتذكرها ومن ثم القدرة على حفظها، إضافة إلى هذا كله هي حكاية أعطتنا أملاً في الحياة، وعلمتنا أن الصبر مفتاح الفرج، وأن النصر للخير دائماً وإن طال الشر واستفحل.

إلى جانب هذا كله يؤكد الأطفال على أن البطل في هذه الحكاية كان له الأثر الأكبر في انجذابهم إليها، فهو إنسان شريف أسر القلوب بإيثاره وحبّه لأخيه، وصبره وشجاعته، وخوضه للمغامرة، وبمخاطرته بنفسه من أجل إنقاذ الفتاة الجميلة.

ورغم أن البطل بدا مثالياً جداً، إلا أن هذا التبرير مقبول، لأن الأطفال في هذه المرحلة بالذات، مرحلة المراهقة المبكرة (12-15 سنة)، يشغفون بالقصص التي تتمتع فيها المخاطرة والمغامرة بالعاطفة، وتقل فيها الواقعية وتزداد فيها المثالية، «لذلك أطلق عليها "مرحلة المثالية"، كما يميلون إلى الحكايات التي يجدون فيها تحقيقاً للرغبات الاجتماعية وأحلام اليقظة والنجاح والاستقلالية الذاتية»⁷.

ولابد أن نشير إلى أن الأطفال الذين أعجبوا بحكاية "بقرة اليتامى" و "مفسرة الألغاز" ذكروا تقريباً نفس الأسباب المتعلقة بقدرتهم على فهم النص الحكائي نظراً لبساطة لغته ووضوح أفكاره وتسلسل أحداثه، لكن ما لفت انتباهنا هنا أن النسبة المئوية التي تحصلت عليها حكاية "بقرة اليتامى"، والتي قدرت بـ 25.62%، كان للفتيات فيها النسبة الأكبر مقارنة بعدد الأولاد، وقد يعود السبب في ذلك إلى أن الاختلاف بين البنات والأولاد يزداد وضوحاً في هذه المرحلة، حيث يتجه الأولاد إلى قراءة قصص المغامرات والمخاطرة وقصص الشجاعة كما سبق ورأينا في حين تميل « البنات إلى القصص العاطفية، والقصص التي تتناول الأمور العائلية... بالإضافة إلى القصص المليئة بالانفعالات والعواطف خصوصاً في بداية مرحلة المراهقة المبكرة»⁸، والفتيات يملن إلى الحكايات التي تأسر عواطفهن وتعبر عن أحلامهن، وهو أمر توفر بشكل كبير في حكاية "بقرة اليتامى" التي كانت فيها الفتاة ضحية لظروف قاسية وأحياها المسكين، لم تتجاوزها إلا بعد أن ظفرت بزوج طيب كان سنداً لها في الحياة.

وإذا كانت حكايات البطولة والمغامرة أقرب إلى قلوب الأطفال من غيرها، خاصة منهم الأولاد، فلماذا نفروا من حكاية "سلاك الحرير من السدارية"، فتدنت نسبة الإقبال عليها إلى 1.56%، رغم أن الصراع فيها بين الخير والشر كان واضحاً، وأن البطل فيها كان شجاعاً ومغامراً، خاطر بنفسه، هو كذلك، لأجل إنقاذ الفتاة الجميلة، وكان ذكياً جداً، حير السلطان وجعله عاجزاً أمام ذكائه الخارق؟.

الطفل في العادة « يعبر عن رفضه للنص بابتعاده عنه سواء أكان السبب في ذلك عدم رغبته في الأفكار التي يطرحها النص أو في صعوبته »⁹ ، وهو ما تبين لنا أثناء عملية تفريغ الاستبيانات ، إذ أكد الأطفال أن هذه الحكاية مملّة وغير مشوقة ، وأن أحداثها غامضة ومعقدة ، وغير مفهومة رغم أن لغتها بسيطة، مما يعني أن الأفكار المطروحة في هذا النص الحكائي ، هي التي سببت نفور الأطفال منها، ويعلل الأغلبية منهم ذلك بقولهم: إن الغموض يسيطر على هذه الحكاية منذ بدايتها ، فقتل الأبناء لزوجاتهم من دون سبب ، إلا امتثالا لأوامر الأب ، أمر غير مفهوم ، ثم إن السكوت المبهم للبطل بعد قتل أخويه لزوجته ، وعدم تحريره لحقيقة الأمر، أيضا حدث غير مفهوم، واكتفاؤه بالسكوت للمرة الثانية عند غياب المرأة التي وجدها أيضا غير واضح.... باختصار شديد أحداث هذه الحكاية غير مفهومة وتسلسلها مبهم، وإلى جانب هذا كله فالبطل سارق وقاتل ، قطع رأس ابن العجوز التي أنقذت حياته دون رحمة ولا شفقة ، لا لشيء إلا لأنّه لا يريد أن يكشف أمره أمام الحاكم.

ويضيف الأطفال : إن البطل جبان لم يواجه السلطان من أجل استرجاع حقه ، بل لجأ إلى سبل غير شريفة للانتقام ، ومع هذا تنتهي الحكاية بمكافأته بالزوجة الجميلة والحياة السعيدة وهو لا يستحقها.

يبدو بأن الأطفال في هذه المرحلة يحبون القصص ذات الأفكار والمضامين التي تصور التنافس الشريف بين الأبطال ، وهو التنافس الذي يقوم على أساس القيم الموجبة في المجتمع ، ولا يقوم على أساس الخداع والغش والحيلة غير المقبولة ، ورغم أنهم « نقاد لاذعون إلا أنهم لا يتمتعون بملكة النقد الموضوعي »¹⁰ ، إذ لازالوا غير قادرين على التفريق بين الجيد والرديء بالدرجة التي تسمح لنا بعرض كل أنواع الحكايات عليهم بدون وضع اعتبار لمستواهم العمري ، وانفعالاتهم وتأثيرها عليهم، وإن بدا لنا مما سبق بأنهم بلغوا المستوى المطلوب لاختيار الجيد منها ، وأن الملكة النقدية لديهم قد بدأت بالظهور، فالأطفال الذين علقوا على رفضهم لتصرفات بطل الحكاية اللامنطقية ونيله الجزاء الجميل في المقابل، رغم أنه سارق وقاتل هم أطفال السنة الثالثة والرابعة متوسط فقط، أي الذين بلغوا من العمر أربع عشرة وخمس عشرة سنة ، لكن البقية اكتفوا بتعليل عدم إعجابهم بها لأن نصها وأحداثها غير مفهومة فقط.

لذلك لا بد أن نعي أن هؤلاء الأطفال يمرون بأصعب المراحل العمرية في حياتهم ، وهي مرحلة المراهقة المبكرة ، التي يكثر فيها التوتر وتزداد فيها الانفعالات والاضطرابات النفسية التي تستدعي عرض نصوص أدبية مختارة بحذر متضمنة النماذج الطيبة والخبرات المناسبة ، التي بإمكانها أن تعين المراهق على اجتياز هذه المرحلة بطريقة سليمة¹¹ آخذين بعين الاعتبار التركيب المتسلسل والمفهوم للأحداث ، والمضمون الجيد الذي يصور الحياة بصورة متوازنة ، تظهر فيها جوانبها المختلفة ، حتى يستفيد الطفل ويتعلم ، ويستطيع أن يفهم الحياة ويعيش فيها متأقلا لا متخيلا فقط .

فتزويد الطفل بمعلومات مظلمة عن الحياة ، وتقديم صورة مشوهة لها مثلما جاء في حكاية " سلاك الحرير من السدارية" ، يؤدي إلى نتائج عكسية على الطفل عندما يقارن نفسه مع الصور المقدمة له، خاصة الطفل في الثانية عشرة والثالثة عشرة سنة من هذه المرحلة العمرية ، لذلك يدعو علماء النفس إلى تقديم الحكايات الشعبية التي تحاول أن « تعلم الطفل التكيف مع الواقع والانحياز إلى المثل العليا ، كما تفتح أبعادا جديدة لمخيلة الطفل الذي يعجز بمفرده ودون معاونتها التوصل إليها ، وما هو أكثر أهمية هو أن الشكل والبنية في الحكاية يمنحان الطفل صورا يستطيع أن يجسدها في

أحلام يقظته ، كما تساعده على توجيه حياته»¹² ووجوده بشكل أفضل خلال عملية الاقتداء بالأبطال خاصة في بداية هذه المرحلة الحساسة من حياة الأطفال ، وهي مرحلة المراهقة المبكرة.

وعلى الرغم من أن الأطفال في هذه المرحلة « يدركون أن شخصيات الحكاية ومغامرات أبطالها ليست منطقية ولا حقيقية ، ولكنها ترضيهم لأن الأشياء تحدث في هذا العالم الخيالي كما يتمنى الأطفال أن تحدث في الحياة »¹³ ، لذلك نراهم يفرحون ويبتهجون بالنهايات السعيدة التي يتمنونها ، في حين ينزعجون ويتسوسون من النهايات السيئة ، وهو أمر كشف عنه الأطفال في عملية سبر الآراء لديهم حول مناسبة كل خاتمة ونهاية للحكايات المعروضة عليهم ، والجدول التالي يوضح ذلك:

نهاية (خاتمة) الحكاية		مرفوضة		مقبولة	
عنوان الحكاية الشعبية		عدد التلاميذ	النسبة	عدد العدد	النسبة
عشبة خضار		311	%97.18	09	%02.81
برد العجوزة		202	%63.12	118	%36.87
الأخوان علي وعلي		207	%64.68	113	%35.31
سلاك الحرير من السدارية		231	%72.18	89	%27.81
مفسرة الألغاز		0	0	320	%100
مخدوق ومحروش مع الغولة		0	0	320	%100
بقرة اليتامي		0	0	320	%100
حور العين بلالة		0	0	320	%100

من خلال الجدول يتبين لنا أن النهايات التي تقبلها الأطفال هي النهايات السعيدة التي صورت الوفاق والصلح بين طرفين ، مثلما حدث مع السلطان وزوجته في حكاية " مفسرة الألغاز " ، أو التي انتصر فيها الخير على الشر مثلما حدث في حكاية " بقرة اليتامي " وحكاية " وحش الجبال وحور العين بلالة " وحكاية " مخدوق ومحروش مع الغولة " ، أما بقية الحكايات فقد رفضها الأطفال بنسب متباينة ، وحجتهم في ذلك أنها نهايات سيئة ومحنة وغير منطقية في الوقت نفسه، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن الأطفال في هذه المرحلة لازالوا غير قادرين على تقبل النهايات المأساوية ، وهو ما اختتمت به حكاية " الأخوين علي وعلي " ، وحكاية " برد العجوزة " ، وحكاية " عشبة خضار " ، أو النهايات غير العادلة ، كما جاء في خاتمة حكاية " سلاك الحرير من السدارية " ، لذلك اقترحوا مجموعة من النهايات التي تدل على رفضهم للظلم وانحيازهم للعدل ، وعن تحبيذهم للعفو واستهجانهم للانتقام والقتل ، ومنها أن يكتفي الولدان بحجر أمهما بدل قتلها ، أو العفو عنها وتصوير ندمها الشديد في حكاية " الأخوين علي وعلي " ، بدل تعذيبها والتنكيل بجثتها. أما حكاية " برد العجوزة " فها حبذا لو أنها استنجدت ونجت من مكر الشتاء ومرضت مرضا شديدا ، ثم شفيت ، وندمت لتكون عبرة لمن لا يعتبر ، وأيضا كان الأجدر بحكاية " عشبة خضار " أن تصور أنها عاشت سعيدة للأبد بدل أن تجازى بهذه الطريقة المحزنة ، لأنها في الأول والأخير قتلت غولا ولم تقتل إنسانا ، أما من يستحق الموت أو السجن المؤبد هو " سلاك الحرير " لأنه قتل دون رحمة ولا شفقة.

1- الرواية الشفوية:

إن التواصل مع الأطفال من خلال الحكى الشفوي ، يسمح للراوي بأن يشعر بمدى تفاعلهم مع هذه الحكايات واستمتاعهم بها مهما اختلفت مضامينها وتنوعت أهدافها ، وهو ما لمسناه أثناء روايتنا لهذه الحكايات أمام الأطفال ، فنسبة الإقرار بأفضلية الحكى الشفوي على القراءة الفردية تجاوزت 97% مما يعني أن الأطفال يفضلون سرد الحكايات عليهم بدلا من قراءتها مكتوبة ، وذلك لأن شخصية الراوي تضفي على الأحداث الكثير من الألفة والأمان والدفع العاطفي ، « وفي سرد الحكاية جمال آخر هو جمال التعبير ، وهو فن إذا أجيد سما بالحكاية سموا عظيما ، وبعث فيها حياة جديدة ، وزاد قيمتها الفنية وتمتع السامع بها ¹⁴ ، فالحكى الشفوي " فن قديم جدا وبديع للغاية ، ينقل الخيال مباشرة إلى تلك المشاهد الجيدة والمؤثرة في العصور القديمة » ¹⁵ .

ويفسر التلاميذ أسباب تفضيلهم للحكى الشفوي على القراءة الفردية بأن الحكاية مروية تبدو مشوقة وممتعة أكثر ، لأن حركات الراوي (الأستاذ) التي ترافق عملية السرد ، والتعبير التي ترسم على وجهه ، تقرب الصورة إلينا أكثر وتزيد من تأثرنا وتفاعلنا مع أحداثها ، وتسهل علينا ربط الأحداث ببعضها البعض واستيعابها دونما عناء ، رغم تعددها في الحكاية الواحدة ، كما أن الإحساس بالتحرك أثناء الإنصات يخول لنا تخيل أبطال الحكاية وعيش أحداثها بكل تفاصيلها ، دون أن ننشغل بتقليب الأوراق أو تكرار بعض الجمل والفقرات لربط الأحداث ببعضها أثناء عملية القراءة .

الأسلوب الشفوي هو الميزة الأكثر وضوحا في مميزات الحكاية الشعبية « فهي أولا وقبل كل شيء ، نص أعد ليكون مكررا ، وليكون مسموعا » ¹⁶ ، يترافق السرد فيه بتغيرات صوتية ، وانفعالات مرئية ، وحركات وإيماءات تجعل جمهور المستمعين يعيش أحداث الحكاية وأبعادها في جو من الانسجام والتكيف ، و « الاندماج على درجة يفقدون فيها صلتهم الواعية بعالم الواقع » ¹⁷ وتظهر على وجوههم سيماء ، التأثير ومعاشية شخوص الحكاية ، والتعاطف مع قوى الخير فيها ، وترقب الأحداث فيشعرون بالتوتر كلما تصاعدت الأحداث وتعقدت ، وتختلط المشاعر لديهم وتباين في الظهور ، فيسيطر عليهم الفرح عند النجاة ، والغضب عند الخسارة ، والاستنكار عند الإساءة ، والإعجاب بعد الفوز ، والضحك عند الفكاهة... وهي انفعالات تساهم حركات الراوي وإيماءاته وطريقة سرده بظهورها عليهم ، بسبب تفاعلهم معه أثناء عملية السرد ، في حين تغيب هذه الصورة لدى الأطفال وهم يقرؤون هذه الحكايات .

فالطفل « كمستمع يعتمد على وظائف نفسية عالية كالتي تصور والتخيل والتفكير » ¹⁸ أثناء عملية التفاعل مع الحكى الشفوي ، الذي يعطي للطفل فرصة لتحويل الكلام إلى صورة ذهنية خيالية ، مما يساعده على توسيع خياله ، ويقوي القدرة لديه على التركيز من خلال الانتباه ، ومن ثم القدرة على الحفظ والإدراك والتذوق والابتكار . وإذا كان للرواية الشفوية هذا التأثير على الأطفال فيجب أن تكون بالنسبة للمربين سببا عمليا كافيا ليقوموا بسرد الحكاية على مسامع الأطفال في المدارس أكثر من قراءتها .

ولابد أن تدرج ضمن البرامج التربوية في مختلف المستويات التعليمية ، لأنها تساهم بدور كبير في مساعدة الطفل على التعبير الشفوي وضبط قواعد النطق والإيقاع من خلال إعادة سرد الحكايات الشعبية بطريقة الخاصة بعد قراءتها أو الاستماع إليها مروية من طرف الأستاذ ، كما أن تلخيص الطفل للحكاية وإعادة كتابتها بأسلوبه الخاص يساهم في تحفيز التلميذ على عملية الكتابة ، ومن ثم إغناء معجمه اللغوي وتكريس وتدعيم القواعد اللغوية لديه ، ولا بأس قبل هذا

كله أن تمر تلك الحكايات الشعبية بمقاييس العصر ومعاييرها قبل أن تقدم للطفل بحيث يتم تنقيتها من التصورات المربعة والقيم الضارة والشوائب المفسدة ، مع العمل على صوغها بصورة تخص الطفل وتلائمه ، بطريقة نجبه فيها ما لا يتلاءم مع مستواه العقلي والنفسي والاجتماعي ، وبشكل يجعلها لا تشذ عن مفاهيم التربية الحديثة. وخلاصة القول في كل ما قدمنا ما يلي :

- تحمل الحكاية الشعبية الجزائرية مخزونا هائلا من القيم التعليمية والتربوية ذات الخلفية الأخلاقية الروحية ، تلك القيم جعلت النص مطية لها في الوصول إلى المتلقي (الطفل) ، وبناء شخصية الفرد والناشئ الذي يبني مع غيره شخصية الجماعة ، ومن ثم مستقبل الأمة بأكملها.
- الحكايات الشعبية من أقوى السبل التي يعرف بها الأطفال الحياة بأبعادها الماضية والحاضرة والمستقبلية، فهي ترضي مختلف المشاعر والأمزجة والمدارك باعتبارها عملية مسرحية للحياة والقيم، والطفل - بحكم خصائصه- يتميز بطلاقة الخيال ، وهو في حاجة إلى دعم خيالاته وإثراء تصوراتها ، لذلك فهو يجد في الحكاية ضالته المنشودة وعالمه الذي يجد فيه السحر والخيال والمتعة والفائدة، ولكل هذا أثر في التكوين العقلي والخلقي للطفل وفي ذوقه وخياله ولغته.
- إن الغرض الأساسي من سرد الحكاية الشعبية على مسامع الأطفال هو تعريفهم بميراث هائل للثروة الأدبية، حيث يهب النسيج السحري الحياة للكلمة المسموعة أو المطبوعة، فيقود الأطفال بلطف ولكن بإقناع، عبر الأبواب التي تفتح ببطء، إلى عالم تتضح فيه، أمام أعينهم المتفتحة المتربة، معجزات الماضي، وعواطف الإنسان الدافئة وروح المغامرة الجبارة عبر العصور.
- لحكايات الأطفال الشعبية معنى يتخطى التسلية العابرة أو الإمتاع الطفولي، إنها نوع من أنواع العلاج النفسي وفن من فنون الاستنارة الداخلية، فهي تخاطب مخيلة الطفل وفي الوقت نفسه تدله على الصعوبات الداخلية والخارجية ليتمكن من تذليلها، ومن ثم يحصل على النضج النفسي، إنها متنفس لطاقت الأطفال وعن طريقها تتفتح عواطفهم وانفعالاتهم إلى جانب تزويدهم بالمعرفة، فهي إذن ليست بتخاريف عجائز، ولا ترهات تدهش الأطفال.
- الحكاية الشعبية شكل من أشكال التعبير الشعبي، وجنس عريق من أجناس أدب الأطفال، ذات محتوى وبنية شكلية مميزة تربطها حتمية منطقية وفنية، تأسر قلوب الأطفال وتجذبهم إليها باختلاف أعمارهم وتنوع أجناسهم.

الهوامش والإحالات :

- ¹ -رافدة الحريري، التربية وحكايات الأطفال، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 2009، ص220.
- ² - أحمد زلط، أدب الطفل العربي (دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط1، 1999، ص185.
- ³ -هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال (فلسفته، فنونه، وسائله)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1986، ص35.
- ⁴ -العبد جلولي، حضور التراث في أدب الطفل الجزائري، القصة نموذجا، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد 09، ماي، 2010، ص126.
- ⁵ -المرجع نفسه، ص126.
- ⁶ -هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال (فلسفته، فنونه، وسائله)، ص40.

- ⁷-موفق رياض مقدادي، البنى الحكاية في أدب الأطفال العربي الحديث، مجلة سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد، 392، سبتمبر، 2012، ص100.
- ⁸-مفتاح محمد ذياب، مقدمة في ثقافة وأدب الأطفال، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1995، ص69.
- ⁹-موفق رياض مقدادي، البنى الحكاية في أدب الأطفال العربي الحديث، ص100.
- ¹⁰-هادي نعمان الهيبي، أدب الأطفال (فلسفته، فنونه، وسائله)، ص10.
- ¹¹-مفتاح محمد ذياب، مقدمة في ثقافة وأدب الأطفال، ص70.
- ¹²-مريم سليم، أدب الطفل وثقافته، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص109.
- ¹³-غراء حسين مهنا، أدب الحكاية الشعبية، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط1، 1997، ص117.
- ¹⁴-حسن شحاته، أدب الطفل العربي، دراسات وبحوث، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط3، 2001، ص181.
- ¹⁵-سارة كون بريان، كيف نخكي لأطفالنا، تر: طارق الحصري، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط1، 2008، ص13.
- ¹⁶-حورية بن سالم، الحكاية الشعبية في منطقة بجاية (دراسة ونصوص)، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص49.
- ¹⁷-عبد الحميد بورايو، القصص الشعبي في منطقة بسكرة (دراسة ميدانية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص50.
- ¹⁸-زبيدة الحطام، تنمية التفكير الإبداعي لدى أطفال التعليم التحضيري، (دراسة وصفية ميدانية)، دار مرايط للنشر والطباعة، الجزائر، 2008، ص202.